مجلة العلوم الإنسانية
Journal of Human Sciences
www.Suj.sebhau.edu.ly ISSN 2707-4846
Received 05/12/2020 Revised 06/04/2020 Published online 30/06/2020

ليفي شتراوس والبنائية

مصيونة أمحمد أبوبكر الفاخري
قسم الفلسفة–كلية الآداب–جامعة بنغازي، ليبيا
للمراسلة: masionaimhemed@yahoo.com

الملخص يروم هذا البحث دراسة نشأة الفلسفة البنائية، من خلال دراسة معنى البنيوية وطبيعتها، وظروف نشأتها، ومعرفة أشهر أعلامها، مركزا على تحليل الرؤية التي يطرحها زعيم الفلسفة البنائية الفرنسي (**ليفي شتراوس Levi Strauss**) من خلال معرفة الخلفية العلمية التي كانت بمثابة المرشد له، وجاء هذا التحليل مرتكزا على النقاط التالية: الإشارة إلى العديد من الروافد التي استقى منها منهجه في التحليل، دراساته لعدد من الأبنية الإنسانية، وصولا إلى معالم منهجه البنائي وأهم خصائصه.

الكلمات المفتاحية: الاستدلال، البنائية، الوجودية، العقلانية، الأساطير.

Structuralism and Levi Strauss

masuona Imhemed Alfakhry
Department of Philosophy, College of Arts, University of Benghazi, Libya
Corresponding author: masionaimhemed@yahoo.com

Abstract This searching involves study of the structuralism engender through study mean of structuralism, Naturalists, condition of Engenders and Knowing the famous Philosophy. concerns on analysis the vision that courteousness by the French elder structuralism Philosophy **Levi Strauss** through Known the backdrop since that was as Guide to him this analysis based on the following points ..Indicate to manner of analysis study to many of human structural access to milestones structuralism manner and most important characters.

Key words: Inference, Constructivism, Existentialism, Rationality, Myths.

مقدمة:

تعد البنائية أحدث مذهب فلسفي ظهر في أوروبا، ويصفها المؤرخون بأنها مذهب ما بعد الروائي والفيلسوف الفرنسي **(جان بول سارتر, Jean Paul Sartre)** (1905،1980م)، والوجودية، فإذا كانت وجودية **(سارتر)** تعبر عن المجتمع الأوروبي في ظل الحرب العالمية الثانية، فإن البنائية تمثل فلسفة المجتمع الأوروبي بعد أن نفض عن نفسه آثار الحرب وتطلع للبناء. فالبنيوية تحليل عام للعقل يزعم أصحابها أنهم يجدون تماثلات أو تقابلات وبالذات تعارضات ثنائية في معتقدات الأفراد والجماعات وفي سلوكهم، وأنه في وجود هذا الاعتراض من الممكن تأكيد أن الأشياء ذات بنية، وأنها قابلة للتحليل، وبإدراكنا لها فأننا لا نطلب نتائج الترتيبات بقدر ما نطلب الطريقة التي بها مرتبة.

معنى البنائية وطبيعتها:

ترتد كلمة البنائية لغويا إلى أصل لاتيني يعني حرفيا هيأة أو تكوين كلي يضم عددا من الجزئيات المترابطة، أي البنيان أو هيئة البناء، والبنية عند الفلاسفة ترتيب الأجزاء المختلفة التي يتألف منها الشيء. أما الترجمة العربية لهذا المصطلح فتتمثل في كلمة البنائية المشتقة من بناء، حيث يصبح المذهب القائم عليها البنائية. إلا أن المعنى الاشتقاقي لهذه الكلمة ذات دلالة معمارية ترتد بها إلى الفعل الثلاثي:" (بنى، يبنى، بناء)، وبناية، وبنية، فقد تكون بنية الشيء (تكوينه)، وقد تعني أيضا الكيفية التي شيد على نحوها هذا البناء أو ذاك"[i]. وبنية الرجل فطرته تقول: فلان صحيح البنية. وللبنية معنى خاص وهو إطلاقها على الكل المؤلف من الظواهر المتضامنة، بحيث تكون كل ظاهرة منها تابعة للظواهر الأخرى، ومتعلقة بها[ii].

يفرق أهل اللسان العربي في اللغة بين المعنى والمبنى، ويعنون بكلمة مبنى ما يعنيه اليوم بعض علماء اللغة بكلمة بنية. "وأما في اللغات الأجنبية فإن كلمة (Structure) مشتقة من الفعل اللاتيني (Struere) بمعنى "يبني" أو "يشيد"؛ وحين تكون للشيء بنية في اللغات الأجنبية، فإن معنى هذا أنه ليس بشيء عديم الشكل، بل موضوع منتظم له صورته الخاصة ووحدته الذاتية"[iii] مادامت البنية في أصلها تحمل معنى الكل المؤلف من ظواهر متماسكة، لذا بالضرورة يتوقف كل منها على ما عداه. تبدو كلمة (البنية La Structure) التي جاء منها لفظ البنيوية كلمة مألوفة تقترب في أذهاننا من معنى الشكل أو الصورة، ولعل هذا ما دفع البعض للقول "كل شيء له بنية إلا إذا كان معدوم

الشكل" ثم لا يضيف هذا اللفظ شيئا إلى ما في أذهاننا، ولهذا تصنف البنائية من ضمن الفلسفات الشكلية.

فجرت الفلسفة البنيوية التي تعتبر بمثابة القانون الذي يفسر تكوين الشيء ومعقوليته، الجدل بين "اللفظ والمعنى" عند النظر إلى مفهوم البنية من الناحية العلمية والفلسفية، نجده نظاما ملموسا مجسدا . لقد كان لدى مفكري الألسنية الذين تأثروا بتطور اللغويات فكرة تقول:" إن أي بنية هي بنية لغوية"[iv]. لو كان لها الصفة البسيطة لكونها تقوم على أساس نظام من الاختلافات؛ فالكلمة كلمة لأنها تختلف عن الكلمات الأخرى، فكلمة (أرنب) لها قيمة بسبب أنها تختلف عن كلمة (منضدة) و(بدين)، (كوخ). مثلا. فما يهم ليس معنى الكلمة وإنما مكانتها في نظام شامل. وهكذا فإن الخاصية المركزية لنظام اللغويات (الانقطاع وعدم الاتصال)، وهذا يعني وجود ثغرات أو هوة بين العناصر. فهذه السلسلة من العناصر ذات الدلالة، تحول الكلمات إلى أعراض وتحيلها إلى أفكار. يبين ذلك كيف أن الأعراض تتألف من كلمات". ودراسة اللغة وحدها تكشف عن وجود آليات لغوية كثيرة مختلفة، وتعطينا دراسة الأعراض النتيجة نفسها. فاللغة تعتبر بنية مجردة أي نظام صوري من الاختلافات. إلا أن الكلام يفترض وجود المتكلم، " فإذ كانت اللغة بنية، فالكلام فعل يبرز المعنى على نحو ما يقال ويضفي الهوية على المتحدثين"[v]؛ لأن الكلمات التي استخدمها تعني أكثر مما أعنيه عند استخدامها. (الكلمات تمثلني ولكنها ليست لي ...) بل هي أرث مجتمعي.

أما معنى البنية في الاصطلاح كما يعرفها **لالاند Lalande** (1867،1964م) فإنها:" نسق أو كل مؤلف من ظواهر متضافرة بحيث تكون كل ظاهرة فيها، تابعة للظواهر الأخرى، ولا يمكن أن تك ون ما عليه إلا في علاقتها بتلك الظواهر"[vi]، ولعل أبسط تعريف لمفهوم البنية كونها نسق من المعقولية" إذ إن البنية ليست مجرد صورة الشيء، أو هيكليته أو وحدته المادية، أو التصميم الكلي الذي يربط أجزاءه فحسب، بل القانون الذي يفسر تكوين الشيء ومعقوليته"، ومن أهم التعريفات التي قدمت للبنية ذلك التعريف الذي قدمه عالم النفس السويسري "**جان بياجيه** " بقوله:" إن البنية نسق التحويلات وبمقدار ما يكون نسقا، تكون هناك قوانين لهذه التحولات"[vii] فمن شأن البنية أن تظل قائمة وتزداد ثراء بفضل الدور الذي تلعبه قوانين تحولاتها نفسها، دون أن تستعين بعناصر خارجة عن هذه الحدود، ومن ذلك فإن مفهوم البنية ينطوي على ثلاثة أفكار رئيسية:

- **فكرة الكلية Totalities**، العلاقة المميزة للبنيات والخاضعة لقانون النسق الذاتي.
- **فكرة التحول Transformation**، إن المجاميع الكلية تنطوي بذاتها على ديناميكية تتضمن سلسلة من التغيرات لا تخضع إلا لقوانين البنية ولا تتوقف على أية عوامل خارجية كما أنها لا تظل في حالة سكون وعدم تغير.
- **فكرة التنظيم الذاتي Autoreglage**، إن البنية تقوم بضرب من التنظيم الذاتي الذي يحقق لها نوعا من الانغلاق، فالتحولات الكامنة في البنية لا تؤدي إلى شيء خارج النسق.

بينما يعرف **ليفي اشتراوس** البنية:" بكونها تحمل طابع النسق أو النظام. فالبنية تتألف من عناصر يكون من شأن أي تحول يعرض للواحد منها، أن يحدث تحولا في باقي العناصر الأخرى"[viii] أما من الناحية المعنوية فالكلمة تعني أن كل شيء في الوجود عامة والإنسان خاصة عبارة عن بناء متكامل يضم بين جنباته عدة أبنية جزئية، تقوم بينها علاقات محددة تعطي هذا الشيء بناءه وتوضح وظيفته، وتبين مكانه ضمن أبنية الوجود الأخرى. وعلى هذا إذا تحول الاهتمام لدراسة هذه الأبنية الجزئية الداخلية لأي بناء كلي متكامل كالإنسان مثلا، فإنه يمكن حينئذ معرفة وظائفه الحقيقية وكشف العلاقات الداخلية التي تربط بين أبنيته الجزئية، ومن ثم يمكن تفسيره تفسيرا صحيحا، كما يمكن التحكم في جزئيات هذا البناء وإعادة ترتيب علاقاتها وتغيير وظائفها. على اعتبار أن هذه العلاقات أبسط من الأشياء نفسها.

إن الجسم الإنساني إذن عبارة عن بناء، والإنسان نفسه بناء أيضا، وكذلك الثقافة والمجتمع وغيرها، كلها عبارة عن أبنية متكاملة تضم بين جنباتها أبنية أخرى جزئية ذات علاقات معينة ووظائف محددة، يمكن كشفها بالدراسة وتوجيهها وظيفيا إلى مستوى أحسن وأداء أفضل، "والأشياء التي يتكون منها البناء لا قيمة لها في حد ذاتها، إنما قيمتها في العلاقات التي تربطها بعضها ببعض والتي تجمعها في ترتيب معين وتؤلف بينها في نظام محدد يوضح وظيفة هذا البناء"[ix].

فنحن نبني استدلالات حين نكون بحاجة إلى تبيين الترابطات القائمة بين أشياء بداهية نعتبرها من المسلمات وأشياء أخرى غير بداهية"، ونقوم بهذا عن طريق وضع الأفكار مع بعضها. وهذه الأفكار تشكل محتوى الاستدلال. أما الأشياء التي نعتبرها من المسلمات فتشكل نقطة انطلاق الاستدلال والأشياء التي نود إثباتها تعتبر أهدافا علينا أن نصل إليها. وكلما توجهنا نحو هذه الأهداف تقدمنا في إقامة الترابطات. والمترابطات بدورها قد تكون قوية أو ضعيفة، وشبكة الترابطات هذه لها بنية شاملة"[x]. وفي كل استدلال نجد أن بعض الأفكار أو بعض الترابطات تكون أكثر قاعدية من أخرى، وبعض الأفكار تكون أكثر بداهة من

أخرى، وترتبط جودة الاستدلال بمحتواه وبقوة ترابطاته، وبمدى المباشرة في إقامة الترابطات، وبسهولة فهمها.

وعلى هذا فالبنائية تهتم أولا وأخيرا بدراسة العلاقات التي تربط جزئيات كل بناء، وتهتم بكشف الروابط القائمة بين الأبنية المختلفة بعضها ببعض. فالتفكير البنيوي قادر على خلق العقلانية في العديد من المجالات التي لم تكن قد عرفت بعد.

والبنائية بهذا المعنى تكون منهجا للبحث والدراسة أكثر منها مذهبا فلسفيا جامدا أو علما ثابتا محددا، إنها منهج يدرس العلاقات دون الأشياء، وذلك بهدف فهم حقيقتها ثم التحكم فيها وإعادة ترتيبها من أجل إصلاحها والارتقاء بها؛ لأن الفهم يتطلب عزل الظاهرة وفحصها بالمجهر أو الملاحظة، البنيوية في المقابل تؤكد أن الفهم الحقيقي لأية ظاهرة إنما يتم عبر ربطها ببني أكبر. فالبنيوية قيمتها تكمن في كونها تفسح المجال أمام تساؤل علمي جديد عميق في صميم معايير المعرفة. كما أنها تمثل حلم العقل البشري التي تضمن له فهم الواقع والتأكد منه والسيطرة عليه من جهة، وإشباع حنينه إلى النظام الأولي المفقود من جهة أخرى.

العوامل الاجتماعية لنشأة البنائية:

كانت هناك عدة ظروف أدت إلى نشأة البنائية وظهورها في أوروبا، متخطية بذلك الوجودية في محاولة لاحتلال مكانها تدريجيا، أول تلك الظروف أن المجتمع الأوروبي في أواخر القرن العشرين ليس المجتمع نفسه الذي عاش أوائل هذا القرن. لقد كانت الحرب العالمية الأولى والثانية سببا في دمار أوروبا، فظهرت الوجودية كفلسفة نفسية لتبحث مشكلة الحرية الإنسانية وعلاقتها بالمسئولية والقلق والتمرد، وغير ذلك من مفاهيم الفلسفة الوجودية التي نبعت من جوف تلك الحروب، ولعل هذا يفسر أسباب انتشار الوجودية بسرعة في شتى أنحاء أوروبا منذ بداية نشأتها في القرن العشرين. وبمجرد الاقتراب من أواخر القرن العشرين تغيرت ظروف أوروبا تماما، وعادت تسعى من جديد للبناء والتعمير بعد أن انتهت آثار الحروب السابقة، ومن ثم بدأت الوجودية تنحسر تدريجيا رغم محاولات تجديدها وذلك لتفسح المجال لظهور البنائية التي تساير الظروف الجديدة للمجتمع الأوروبي في البناء والارتقاء والتطور، لهذا كانت البنائية بحق مذهب ما بعد (**سارتر1980،1905م**) والوجودية.

أما الظرف الثاني الذي أدى إلى نشأة البنائية وظهورها في أوروبا، فإنه يتمثل في ثورة المجتمع الأوروبي على كل جمود مذهبي فكري من شأنه أن يعرقل البناء والتقدم، والشعور بالحاجة إلى اتجاهات فكرية جديدة مفتوحة غير مغلقة، مرنة غير جامدة، تساعد على البناء وتساير التقدم. فالوجودية بدأت تتحول إلى مذهب جامد، كما أن الماركسية أصبحت مذهبا مغلقا، لذلك احتاج الأمر إلى فكر جديد مفتوح يكون أقرب إلى المنهج منه إلى المذهب، وهو الذي يتمثل في البنائية، التي لا يمكن إنكار أنها استفادت كثيرا من الوجودية والماركسية، ولكن في تركيب جديد ومنهج مغاير يتفق مع الظروف المعاصرة للمجتمع الأوروبي. فالبنائية ليست مجرد منهج لإيجاد تفسيرات جديدة ومدهشة للأعمال الأدبية، وإنما هي باب من التفكير أيضاً.

وأخيرا كان الظرف الثالث الذي أدى إلى ظهور البنائية هو السعي لتطوير العلوم الإنسانية لتلاحق تقدم العلوم الطبيعية، حقا كانت هناك محاولات من قبل قام بها (**هوسرل Husserl** (1938،1859م) من خلال الفينومينولوجيا وكذلك (**سارتر**) وغيره من الوجوديين، بالإضافة إلى محاولات الماركسيين وغيرهم، لكن هذه المحاولات لم تحقق الأهداف المرجوة؛ لأن الغالبية منهم أوغل في التجريد واهتم بذاتية الإنسان دون العلاقات الموضوعية التي يرتبط بها هذا الإنسان مع غيره من البشر. ومن هنا ظهرت البنائية في محاولة منها لتحاشي هذه الأخطاء السابقة، بهدف تطوير العلوم الإنسانية عامة ودراسة الإنسان خاصة كما يتمثل في شتى علاقاته الموضوعية، حيث أصبحت البنائية في جوهرها عبارة عن تحليل للبناء الإنساني وكشف للعلاقات الموضوعية التي تربط شتى أجزائه، وذلك بهدف التحكم فيها والارتقاء بها ليلحق الإنسان بركب التقدم الذي وصلت إليه العلوم الطبيعية.

أشهر أعلام البنائية:

كان هناك عدد من المفكرين وعلماء الإنسان ساهموا في تكوين البنائية حسب معناها السابق، وعملوا على إبرازها في شكل واضح ومتكامل، وذلك في عدد كبير من المؤلفات والدراسات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية واللسانية، ونلاحظ أن غالبيتهم من الفرنسيين، كما أنهم ممن يعملون في حقل الانثروبولوجيا، أو علم دراسة الإنسان والحضارات القديمة والمجتمعات البدائية، هذا العلم الذي يبين لنا هذا الكائن كعضو في جماعة معينة وصلت حدا من الثقافة، وهكذا قد تهيأ له من الأذواق والمعايير ما هو طبيعي بالنسبة لهذه الجماعة. أهتم مفكرو البنائية بدراسة كل ما يتصل بالظواهر الإنسانية كاللغة والعادات والأساطير والآداب وغيرها، وذلك في محاولة منهم لكشف العلاقات التي تربطها فيما بينها، كما نلاحظ أيضا أن أعلام البنائية لم يرفضوا تماما الوجودية أو الماركسية وغيرها من المذاهب المعاصرة، وإنما نظروا إليها نظرة نقدية جديدة، وحاولوا فهمها من خلال وجهة نظرهم البنائية.

ومن ضمن البنائيين الفرنسيين المعاصرين (**لويس التوسير** L. Althusser 1918. 1990م) وهو في حقيقته

ماركسي النزعة، لكنه أعاد دراسة الفلسفة الماركسية ومنهجها الجدلي بهدف تطويرها لتساهم فعليا في تقدم الإنسان والارتقاء بالمجتمع، ومن أشهر مؤلفاته " قراءة رأس المال" اشترك فيه مع اثنين من الماركسيين الفرنسيين، وقد حاول فيه أن يوسع أفكار (**ماركس**) في "رأس المال" ولا يجعلها مقصورة على النواحي الاقتصادية أو السياسية الجامدة، أضفى عليها الكثير من الدراسات اللغوية والتاريخية والفلسفية، لكي لا تقتصر على دراسة البناء الاقتصادي فقط، وإنما تتعداه لدراسة الأبنية الأخرى في الإنسان والمجتمع على السواء.

ومن أعلام هذا الاتجاه البنائي الفيلسوف الفرنسي (**جاك لاكان Lacan**1981،1901) الذي استخدم نفس النظرة النقدية السابقة لكن بالنسبة لطبيب الأمراض العصبية النمساوي "**سيجموند فرويد** Sigmund Freud"(1939،1856م)، محاولا أن يفهم الأبنية الداخلية للإنسان والعلاقات التي تربطها فيما بينها، وذلك من خلال جهود (**فرويد**) نفسه، وأصدر كتابا بعنوان" أعمال مختارة من فرويد" تتبع فيه التطور التاريخي لآرائه في محاولته كشف مجاهل النفس الإنسانية والربط بين الأبنية الجزئية الخاصة بها، مع كشف العلاقة بين الأمراض النفسية والحياة الاجتماعية والثقافة وغيرها من بقية الأبنية الإنسانية كالجسم والعقل والجنس...إلخ[xi].

وقد برز من بين البنائين أيضا عدد آخر من الباحثين تخصصوا في دراسة بعض الأبنية الفرعية، وتوسعوا في دراسة عدد من الظواهر الإنسانية لكشف جزئياتها وعلاقاتها الداخلية، وذلك مثل "**ميشيل فوكوه** Michel Foucault 1984،1926"[xii] أحد أقطاب البنيوية الثقافية، الذي تخصص في دراسة اللغة من حيث أصلها وتركيبها ووظيفتها، فقد رأى أن اللغة في صورتها الأولى، عندما أعطاها الله للإنسان، كانت رمزا شفافا ومعبرا عن الأشياء لأنها كانت تشبه الأشياء.

فالأسماء وضعت فوق مسمياتها تماما كما كتبت القوة في جسم الأسد والملك في نظرة النسر، وتأثير الكواكب على جباه البشر. كما ا فترض أن تكون هذه الشفافية قد تبددت بعد طوفان بابل عقابا للبشر. وبروز آخرين من أمثال "**ماورلان بارث**" صاحب الدراسات المتعددة عن الموضة والأزياء في علاقتها بالمجتمع والثقافة والعادات، و"**موريس جودليا**" الذي وجه اهتمامه عامة لدراس ة الجنس البشري كبناء متكامل، ثم اهتم خصوصا بالسلالات في تطورها التاريخي والاجتماعي لكشف شتى العلاقات الخاصة بها، وأيضا عالم اللغة الشهير (**فردينان دي سوسير De Saussure**) الذي يعتبر رائد هذه المدرسة الأول والأب الحقيقي للحركة البنائية، ويرجع إليه الفضل الأكبر في ظهور المنهج البنيوي، من خلال كتابه" دروس في علم اللغة العام"، بينما ظهر المنهج البنيوي في صورته الدقيقة عام 1928م في المؤتمر الدولي للغويات الذي انعقد في لاهاي بهولندا حيث قدم ثلاثة من العلماء الروس وهم:(**جاكبسون Jacobson، وكارشفسكي، وتروتبسكوي Trubetzkoy 1938,1890**) بحثا وضعوا فيه اللبنات الأولى لهذه الحركة بالمعنى الذي يستخدم في وقتنا المعاصر، ليبدأ عصر "اللسانيات" في الانطلاق، ويبدأ علماء الكلام في قيادة حركة الفكر والفلسفة، ولم يعد الاهتمام بالبحث التكويني التاريخي للغة، بل علوم اللسان التي تميز بين اللغة والكلام، فقد فرق (**دي سوسيير**) بين اللغة والكلام، على اعتبار أن اللغة مجموعة من الأنظمة التعبيرية التجريدية ذات القوانين العامة وهي محصلة تاريخية وكيانا قائما بذاته، أما الكلام فهو استخدام الأفراد الواقعي لهذه اللغة، بالتالي لا يمكن تطبيق المراحل المنهجية الخاصة باللغة على الكلام، ولهذا لا يمكن أثبات الخواص الدلالية للغة في حد ذاتها؛ لأن كل الدلالات قابلة لأن تخرج من جرابها، فاللغة لا توصف بأنها حزينة ولا مرحة، ولا متحمسة ولا منطفئة، ولا جافة ولا موحية؛ لأنها كل ذلك وأكثر بكثير، إنها تشمل بالفعل كل الإمكانات الدلالية المختلفة، لا تملك إحداها فقط ولا تفصلها على ما سواها، وعلى العكس من هذا فإن الكلام . تعبير الإنسان في وسط اجتماعي معين . يكتسب دلالات محددة، ولهذا تهتم الدراسات اللغوية البنائية بالأنظمة التي تسمح بالتعبير عن أي مدلول[xiii]، فاللغة على ذلك جملة المصطلحات المتفق عليها من أجل ممارسة اللسان لدوره، بينما الكلام يمثل تلك الممارسة نفسها أو "فعل الذات المتكلمة"، إذا ما كانت اللغة بنية مجردة، فما نوع الذات التي يمكن تصورها مناسبة لها؟ كيف يمكن للموجود البشري أن يجد مكانا في بنية هي بذاتها غريبة عنه؟ تستهدف البنيوية التخلص من الذات، وفكرة النشاط الذاتي، واضعة استقلال البنية اللغوية في مكانها. بينما نجد عالم الأنثروبولوجيا الذي يعتبر أشهر مؤسس للبنائية موضوع بحثنا "**كلود ليفي شتراوس**"، باعتبار أنه أكبر الداعيين لها في الغرب. وذلك بفضل دراساته المتعددة في هذا الميدان الإنساني الجديد،" فقد كان يؤمن بأنه كما أن (**دي سوسير**) نادى بأنه تحت كل قول مفرد Parole يوجد نظام اللغة ذاته أو بنيتها، كذلك بالمثل في ميداني الأنثروبولوجيا والأدب تحت كل فعل مفرد أو نص من النصوص يوجد نظام أو بناء كامل من الأفعال أو النصوص"[xiv].

ليفي شتراوس Levi Strauss:

حياته ومؤلفاته:

أنثربولوجي وأكبر ناقد أنتولوجي فرنسي معاصر، من مواليد بلجيكا في 28 نوفمبر عام 1908م، قضى دراسته في باريس ثم أمضى معظم حياته في فرنسا، وأصبح فرنسي الجنسية، وقد تخصص في الأنثروبولوجيا، " يعمل أستاذا للأنثروبولوجيا في باريس، ومديرا للمعهد الأنثروبولوجي هناك، ثم في عام 1935م، ذهب إلى البرازيل ليحتل مركز أستاذ علم الاجتماع في جامعة ساوباولو. عندئذ تحرك الفيلسوف كعالم بالأجناس البشرية وقاد عدة بعثات علمية في الماتو غروسو Matto Grosso وفي منطقة الأمازون الشمالية"[xv]. وتوفي عام (2009م)، تأثر **(بإميل دوركايم Emile Durkheim 1805،1907م)**، و**(موس** Mauss)، بعد لقائه بعالم اللسانيات **(جاكبسون)** في نيويورك قرر أن يطبق مفهومه على دراسة الظواهر الإنسانية ما تجسد في أعماله وبحوثه على قبائل الهنود في الأمازون، وإلى جانب ذلك فهو من أشهر علماء الأساطير المعاصرين وأكثر البنائيين غزارة، فقد أخرج العديد من الدراسات الجادة العميقة ومنها على سبيل المثال:(المجتمعات البدائية)، (الطوطمية اليوم)، (العقل البدائي)، (البناءات الجوهرية لصلة القرابة والنسب 1949م)، (عالم في الطريق إلى الاندثار)، وسلسلة كتبه المسماة (الأساطير أو أسطوريات) و(النيئ والمطبوخ) و(الفكر الوحشي1962م)، (الأنثربولوجيا البنيوية 1959م)، (ميتولوجيات "أربع أجزاء من 1964 إلى 1970م) وغيرها من الكتب والمقالات المتعددة، كما صدرت عدة دراسات عن آراء **(شتراوس)** وأفكاره، بعد أن أصبحت له مكانة مرموقة باعتباره من أعمق دارسي علم الإنسان والمجتمعات البدائية في العصر الحاضر.

أصول منهجه البنائي:

أنجز **(شتراوس)** ثورة غير سوسيرية (نسبة إلى **دو سوسير**) التي أعادت ـ بحسب فلاسفة اللغة العادية ومنظري البرجماتية التداولية ـ وضع (الكلمة) إلى المقام الأول، بمعنى الإفصاح الفعلي، بدلا من نظام العلامات المأخوذ في ذاته، كما جاء في كتاب **(دوسوسير)** محاضرات في اللسانيات العامة، حيث" أشار فيه إلى إن الإشارة الألسنية حركية ـ إنها لا تعمل إلا بتميزها، ببعد معين بينها وبين الإشارات الأخرى، وليس أولا باستدعائها معنى إيجابيا ـ،كأن يجعل وحدة اللغة مدركة حسيا، في باطن المعنى الواضح، وكأن تنظيما معينا يتم فيها قبل أن يعرف المبدأ المثالي"[xvi]. هذه الثورة الثانية لا تقود فقط إلى إعادة الاعتبار ضد النزعة البنيوية للحدس القديم، ذي الطابع الأساسي لوظيفة التبادل والتواصل في اللغة. بل محاولته الإفادة من المنهج البنيوي الذي يقوم أساسا على الأسس النظرية والمنهجية التي تطورت في البحث اللغوي، وقد أشار إلى الروافد التي استقى منها منهجه في التحليل، فقد استفاد كما أسلفنا القول من اللغوي السويسري **(دي سوسير** **De** Saussure) صاحب المنطلق الأساسي للنظرية المعاصرة في اللغة، وكذلك صاحب اللغويات الروسي **(تروبتسكوي** Troubetskoi والبولندي الأمريكي **(جاكوبسون)** رائدا البحث الفونولوجي، كما استفاد من الآراء النظرية للباحث الأمريكي **(بواز)** حول طبيعة اللغة"[xvii] عندما استهدف تخليص العلوم الإنسانية من الشوائب الميتافيزيقية، بتأسيسها على دعائم منهجية دقيقة، مستلهما مناهج علوم اللسان، والرياضيات في الأساطير والقرابة.

دراساته لعدد من الأبنية الإنسانية:

نستعرض فيما يلي وبإيجاز أهم دراساته في مختلف مجالات الأنثروبولوجيا*، حيث نستخلص منها بعد ذلك معالم المنهج البنائي وأبرز خصائصه.

المجتمعات البدائية:

تعتبر الأنثروبولوجيا الاجتماعية أن المجتمع يتألف من نظم من هذا النوع: نظام الأبوة والبنوة (مع قواعد الزواج المناسبة)، نظام التبادل اللغوي، نظام التبادل الاقتصادي، نظام الفن، الخرافة والطقوس...فهو نفسه مجموع هذه النظم في تفاعلها. بقولنا إن تلك بنى. إ ن الأشخاص الذين يعيشون في مجتمع لا يعرفون بالضرورة مبدأ التبادل الذي ينظمهم، ليس أكثر من الشخص المتحدث الذي لا يحتاج كي يتكلم للمرور في التحليل الألسني للغته. فالبنية يمارسونها كأمر طبيعي، بمعنى أنها تملكهم لا يمتلكونها. إذا قارناها باللغة سواء باستخدام الكلمة الحي، أو باستخدامها الشعري، حيث تبدو الكلمات تتحدث من ذاتها وتصبح كائنات... لذا يرى **(شتراوس)** بأننا لا ندرك "البنية" إدراكا تجريبيا على مستوى العلاقات الظاهرية السطحية المباشرة القائمة بين الأشياء، بل ننشئها إنشاء بفضل النماذج التي نعتمد عن طريقها تبسيط الواقع، وإحداث التغيرات التي تسمح بإدراك البنية. فقد عبر عن ذلك في كتابه (الأنثروبولوجية البنيوية) بقوله:" إن المبدأ الأساسي هو أن مفهوم البنية الاجتماعية لا يرتد إلى الواقع التجريبي، بل يرتبط بالنماذج التي نبنيها انطلاقا من هذا الواقع"، وهذا النموذج وفقا لذلك يجب أن يتسم بالسمات الآتية: **أولا**: أن يؤلف نسقا أو نظاما من العناصر، يكون من شأن أي تغير يلحق بأحد عناصره، أن يؤدي إلى حدوث تغير في العناصر الأخرى. **وثانيا**: أن يكون مد تميا إلى مجموعة من التحولات، بحيث تتكون من مجموع تلك التحولات جماعة من النماذج؛ **ثالثا** : لابد أن يكون قادرا على التنبؤ بالتغيرات التي يمكن أن تطرأ على النموذج في

حالة ما إذا تعدل عنصر من عناصره؛ **رابعا :** أن يكون كفيلاً بتفسير الظواهر الملاحظة من خلال عمله أو قيامه بوظيفته.

أراد في هذه الدراسة للعقل البدائي خاصة والعقل الإنساني عامة، أن يؤكد فكرة أن العقل موجود كموضوع طبيعي له أساس عام مشترك بين كافة الأجناس البشرية، محطما بذلك النظرة التقليدية للعقل الإنساني باعتباره يختلف من عصر إلى آخر ومن مجتمع إلى غيره، فالأنماط السلوكية والفكرية تكاد تكون عامة بين البشر، وذلك في أساسها الجوهري وليس في شكلها الجزئي المتغير، سواء كانت أنماط السلوك وأساليب التفكير تلك في المجتمعات البدائية أو المتحضرة، فالإنسان البدائي في وسط أفريقيا وغيرها من المناطق البدائية، يسلك ويفكر مثل الإنسان المتحضر في أوروبا وأمريكا، وذلك على أساس مبدأ التعارضات الثنائية أو المزدوجة الموجودة في كل المجتمعات البشرية، والتي أساسها الإيجابية والسلبية مثل الإنسانية والحيوانية، الطبيعة والثقافة، المطبوخ والنيء ، وغير ذلك مما هو جوهري في العقل الإنساني والحياة البشرية.

وهكذا يمكن بالدراسات المختلفة اكتشاف المزيد من الأنماط السلوكية والفكرية المتشابهة والمشتركة في العقل الإنساني. حيث يقدم لنا نظريته قائلا:" إن عالم الاجتماع الذي يواجه كثيرا من الظواهر الاجتماعية (الطقوس والعقائد والأساطير...) سرعان ما يتحقق من أن كل ظاهرة تعبر عن نفسها، بلغة خاصة، عن شيء مشترك بينها جميعا، وليس هذا الشيء المشترك على وجه التحديد سوى البنية"[xviii]، و يعني بذلك العلاقات الثابتة، القائمة بين حدود متنوعة تنوعا لا حصر له، في شكل ظواهر تجريبية، وبمعنى أصح المظاهر، وحقيقة هذه الم ظاهر فيما يرى "لا تتمثل في ظاهرها على نحو ما يبدو عليه عيانا للملاحظ، بل تكمن في مستوى أعمق من ذلك بكثير، ويكون ذلك بمعرفة دلالتها ولا تظهر هذه الدلالة إلا في العلاقات القائمة بين الأشياء"[xix] إنها العلاقة بين المباني والمعاني، بين الكلمة والدلالة، محاولا بذلك تطبيقها في مجال العلوم الإنسانية، وبذلك لم يقتصر دخول مفهوم البنية إلى الوقائع اللغوية على أحداث ثورة في الدراسات اللسانية فقط، بل امتدت هذه الثورة إلى مجال الوقائع الاجتماعية بوجه عام، والوقائع الأنثروبولجية بوجه خاص، وقد قدمت نموذجا من التأويل البشري للعلاقة القائمة بين الطبيعة والثقافة اللتين يدرك ارتباطهما الوثيق، مشاعر متضاربة بقوة. ولكي تستمر الطبيعة في الثقافة وتجعل منها شيئا آخر غير هيكل قاس من القواعد، كان ذلك يستدعي عطفه ويستثير إحساسه. لكن الطبيعة تستمر كذلك تحت الثقافة مثل الكثافة التي انتزعت منها ولكن ثمة خطر دائم في أن تسقط مجددا فيها وأن تتحجر، وذلك يثير رعبه.

يؤكد **(ليفي شتراوس)** على أن التبادل والتواصل يشكلان الوقائع الاجتماعية الأساسية؛ لكنه يقوم بتحليل الشروط الموضوعية للإمكانية، التي يموقعها ضمن الأنساق الرمزية اللاواعية، بينما يفضل فيلسوف وعالم الاجتماع الألماني المعاصر **(يورغن هابرماس** Jurgen Habermas(1929 -) "مقاربة أكثر فينومينولوجية متمركزة على النشاط والعقلانية المستخدمة من قبل الفاعلين في التفاعل اللغوي"[xx] . ويكاد يكون هذا كله ما قدمه في كتاباته عن (البنيات الأولية للقرابة) وسلسلة كتبه (أسطوريات) وقدم التفسير الإنساني للعلاقة بين الذكر والأنثى، والأسرة والمجتمع والعلاقة بين الثقافات والحضارات والمجتمعات قائلا:" إن اللغة مبادلة واتصال وحوار، وهذا ما يحدث في الزواج، فتبادل الرموز كتبادل النساء، وما ينتج عنها من مصاهرة وصلة رحـ م"، ولهذا اعتبر اللغة كالنساء تماما، وكانت هذه النظرة طريقاً إلى تجاوز التناقض الذي كان يظهر المرأة بمظهرين متناقضين، الأول بوصفها موضوع رغبة مثيرة للغرائز، والثاني باعتبارها ذاتا ترغب هي في الآخر، أي أنها وسيلة ربط تربط بها الآخر الذي تترك نفسها ترتبط به، وهكذا ومن هذا الربط تكون اللغة النمط الرئيسي لكل تنظيم، ويقول في ذلك: "في كتابه الفكر الوحشي:" إن هناك تفكيرا منطقيا في باطن الطبيعة والثقافة"[xxi] وأن "الذات لا تشكل الموضوع"، بل على العكس من ذلك "فإن الذات تتشكل بفعل تدخل الروح الموضوعية" فلا وجود هنا لكوجيتو فردي على طريقة "**ديكارت** Descartes" (1596،1650م) ولا لكوجيتو اجتماعي على طريقة "**سارتر**" بمعارضته "فكرة الكيان الداخلي للإنسان فيقول:" إن الذي يبدأ بوضع نفسه في خضم البداهات المزعومة لـ(الأنا) لن يخرج منها أبدا، و البنيوية ترسي قواعدها على المستوى الذي يصبح فيه التنظيم نسقا دون علم التفكير"[xxii] وهنا تكون البنيوية غير فكرة البنية التي رآها الفيلسوف الألماني" **إمانويل كانت** Immanuel Kant 1724،1804م" ضرورية لأن البنيات هنا، ليست مقولات الذات، بل بنيات في الأشياء، ويقوم العقل بعكسها على صفحته، لذلك فهي مختلفة تماما عن بنيات "**كانت**".

وصفوة القول إ ن البنيوية ترمي إلى قانون عالمي لأنها تؤمن يقينا بنهائية ممكنة لتجمعات بنيوية، تجمع الشعوب والثقافات دون ضـ رورة لذوبان "الهوية"، وترى أن علاقة التطور الفكري بالشخصية الثقافية علاقة زمالة وليست بالضرورة علاقة ذوبان" بنوة أبوة" بذلك تنظر لخصوصيات بنيوية تحافظ على شخصية الفرد في الأسرة "ذكر أنثي" والمجتمع مجموعة أسر

والمجتمعات مجموعة بنيات ثقافية ومهما اختلف الباحثون في تقييمها من الناحية الفلسفية، تؤكد أ نها ليست دون مبرر فكري وهذا ما لاحظه "**ميرلوبونتي Merleau Ponty**" (1961،1908م) أحد أعلام الفلسفة الوجودية قائلا:" نظام عقلي كامل أخذ يتحدد بظهور مفهوم البنية"[xxiii]. ذلك المفهوم الذي يلاقي اليوم من النجاح في كافة المجالات ما يدل على أنه يشبع حاجة عقلية هامة في عصرنا الحديث، وتنأى بالفكر الإنساني عن محور الذات والموضوع" الذي طالما هيمن على الفلسفة ابتداء من "**ديكارت وهيجل (1831،1770م)**" ويرى بعض الباحثين مثل "**بارت**" أن البنيوية هي اللغة الشارحة لكل حضارتنا المعاصرة.

يؤكد **(شتراوس)** أن هذا يفسر لنا أسباب انجذاب الإنسان المتحضر إلى الطبيعة بكل ما تحويه من جمال وبساطة، ويفسر أيضا مبررات ميل الإنسان في حضارة القرن العشرين للارتداد إلى طريقة العيش في المجتمعات البدائية، فالحضارة المعاصرة استنفدت كافة إمكاناتها العقلية، وفقدت كل تجانس بين أفرادها، وذلك عكس المجتمعات البدائية التي لا زالت تهتدي في سلوكها بمبادئ العقل البسيط، والتي يتجانس أفرادها في وحدة كلية شاملة أصبحت مفقودة في الحياة المعقدة للحضارة الغربية المعاصرة.

دراسته للأساطير:

يهتم **(شتراوس)** بدراسة الأساطير وتحليلها ليستخلص منها كافة النظم الاجتماعية البدائية الخاصة بها، فذلك لأن هذه البنية الأسطورية تفتح طريقا لحل بعض التوتر المحلي؛ لأنها أعيد خلقها في ديناميكية الحاضر. لا تحرم البنية المجتمع من عمقه أو جاذبيته، فهو نفسه بنية البنى. وذلك بتتبعه هجرة هذه الأساطير وانتقالها بين مختلف المجتمعات، حيث وجد أنها تحمل في طياتها الصفات العامة للعقل البشري والخصائص المشتركة بين المجتمعات الإنسانية، واكتشف أيضا أن تلك الأساطير تمثل الطاقة المحركة للعقل البشري التي دفعته للانتقال من التوحش إلى التحضر، ومن سيطرة العاطفة إلى المعرفة العقلية، ومن الطبيعة البسيطة إلى الثقافة المعقدة، وهكذا فإن الأساطير يمكنها أن تفسر حقيقة تطور البشر من خلال التعارضات الثنائية السابق ذكرها، وبواسطة اكتشاف العلاقات التي تربطها فيما بينها. فالأسطورة تعتبر بمثابة الصيغة المقدسة التي تنساب فيها الحياة عندما تسير وراء خطوط اللاشعور. فهي تمثل في تاريخ الإنسانية مرحلة بدائية مبكرة، فكان الأولون يعيشون في زمن يعتمد على الدورات المتكررة التي تعود فيها الأحداث الطبيعية والاجتماعية للوقوع بشكل حتمي جبري. لذا ميز في دراساته لما يسمى بالفكر البدائي بين عاملين أساسيين هما الدين والأسطورة، على اعتبار أن الأول هو "أنسنة القوانين الطبيعية" بينما تهدف الأسطورة إلى "تأكيد طبيعية الأعمال الإنسانية"[xxiv]،

ويضرب مثالا لذلك في كتابه (النيء والمطبوخ) الذي يكشف فيه تحليل الأساطير والعلاقات القائمة بينها، فعملية الطهي تمثل قدرة الإنسان على تغيير المأكولات من حالتها الطبيعية النيئة إلى حالتها الصناعية المطبوخة، أي تحويل الشيء الطبيعي الفج إلى شيء صناعي إنساني. ومن هنا يؤكد على أن وراء عملية الطهي تلك التي تقوم بها كل ربة بيت، يوجد تراث بشري كبير من الأساطير يوضح العلاقة بين الطبيعة والإنسان من جهة، وبين الإنسان وغيره من البشر من جهة أخرى، وأن مهمة البنائية اكتشاف هذه العلاقات الداخلية والأبنية الجزئية التي تتكامل فيما بينها لتأخذ شكل بناء واحد يتمثل في عملية الطهي، حيث يتكامل هذا البناء بدوره مع بناء اللغة وبناء العادات وغيرها من الأبنية الإنسانية الأخرى.

القرابة والنسب:

يتعرض **(شتراوس)** في دراسته ومؤلفاته لظاهرة إنسانية أخرى هامة هي القرابة والنسب والزواج، عبر تنوع العادات، نحو مخطط بنية يمكن اعتبار هذه النظم من بنيته. حيث يتتبع البناءات المختلفة التي تتكامل فيما بينها لتعطي هذه الظاهرة كيانها الواضح، يرجع في دراسته تلك إلى المجتمعات البدائية والأساطير القديمة، ويظل يتتبع تطورها ويكشف العلاقات القائمة بينها في مختلف قارات العالم وبين شتى المجتمعات البشرية القديمة منها والحديثة، وفي النهاية استخلص من هذا كله أن المرأ ة حين تتزوج بالرجل تكون كمن بلغ رسالته بين جماعات الرجال، ثم إن تزاوج نسلها بعد ذلك في الكبر يتابع استمرار تبليغ هذه الرسالة. وقد لاحظ أن النساء في المجتمعات البدائية يمثلن الهدايا التي يتبادلها الرجال، بالضبط مثل النقود والمحاصيل والأشياء القيمة التي يتبادلونها فيما بينهم، والمرأة عندهم إحدى تلك الهدايا، لكن المجتمع الحديث رفض هذا الشكل الخارجي لزواج الرجل بالمرأة، وارتفع عن النظر للزواج بالمرأة باعتبارها هدية، بينما الحقيقة لا زالت كما كانت في المجتمعات البدائية. فقد ناقش الأنواع المختلفة للزواج والمحرمات في شتى المجتمعات، حيث أرجع سبب تحريم الزواج من بعض الأقارب إلى حاجة المجتمع للتوسع في النسب، وتوسع دائرة تبادل الهدايا وحمل الرسائل بين مجتمعات الرجال على أكبر نطاق ممكن. فمثلا الزواج من أفراد من غير القبيلة قد يوجد لدى الشباب من الذكور ميولا عدائية حربية إذ يجد هؤلاء أنفسهم مسوقين للبحث عن زوجات من الخارج، وفي نفس الوقت ينتج عن هذا التصرف

الاحتفاظ بفائض من الإناث لإمتاع حكام القبيلة من الشيوخ. لكن يمكننا أن نلاحظ أن هناك إشارات نحو هذه النظرية عند الأنثربولوجيين الفرنسيين الأوائل. لقد أشار **(دوركايم)** إلى التمييز الحاسم بين القرابة الثقافية وقرابة الدم البيولوجية، وأشار **(مارسيل موس)** إلى عناصر التبادل المندرجة في الزواج الاغترابي (زواج النساء من رجال غير الرجال المنتمين إلى عائلاتهن البيولوجية أو في مجموعتهن المباشرة)[XXV] حفاظا على التوازن، بديلا مباشرا أم غير مباشر، ظاهرة التبادل قد تنعقد إلى ما لا نهاية عندما يحل التبادل محل المبادلة المباشرة. إلا أن **(شتراوس)** يعطي لطرحه منعطفا جديدا تماما حين يعتبر تبادل القرابة نسقا من التواصل. فقد يتخذ الزواج الاغترابي عموما شكل تبادل النساء بين العشائر، بحيث يتعين على النساء الزواج خارج عشائرهن، وينسج انتقالهن من عشيرة إلى أخرى نمط التزامات متبادلة عادة ما يكون ذا تعقيد مذهل إلى حد بعيد. يجب معه بناء نماذج تبرز المجموعات المختلفة الممكنة والتنسيق الداخلي لأنماط الزواج المفضل ولنظم القرابة المختلفة. إن مجموعة أدواتنا العقلية المستعملة لا تكفي للكشف عن هذه البني الشديدة التعقيد والمتعددة الأبعاد، وقد يكون ضروريا الاستعانة بتعبير شبه رياضي، أكثر قابلية للاستعمال بقدر ما لا تقتصر رياضيات اليوم على القابل للقياس وعلى علاقات الكمية. والواقع أن العشيرة بحاجة إلى ما تمتلكه عشيرة أخرى، والعكس. وبهذا يخلق النسق الطوطمي اتكالات متبادلة تماما عن طريق خلق الاختلافات. وكيفما كان الانفصال داخل العشائر اعتباطيا ومصطنعا في ذاته، فإنه يصلح لإحداث التبادل الاجتماعي.

بطبيعة الحال، لا تغطي قواعد الزواج في مجتمع معين، مجموع المؤسسات، ولكنها تعبر دائما عن نمط بنيوي معين يوضح تنظيم هذا المجتمع. إن المجتمع لا يصنع من قطع وأجزاء، وكذلك الثقافة، إن المجتمع يشكل، كما الثقافة، عالما من القواعد المنظمة التي تستجيب لبعضها في مجالات ومستويات مختلفة. ومن المؤكد أن قواعد الزواج تحتل غالبا في المجتمع أو الثقافة مكانا مهما للغاية؛ لأنها تعرف فيه ببعض طرائق التبادل، وإن كل مجتمع يمكن أن يعرف في نهاية الأمر بنوع الاتصال الذي يقيمه بين أعضائه. على أساس أن المجتمع أساسا بنية، للسبب نفسه، إذ إن البنية بالتحديد خلاف الفسيفساء المصنوعة من عناصر قابلة للانفصال. فيمكننا تعريف الثقافة على أنها الاتصال المنظم، وعلم الاجتماع على أنه نظرية عامة للاتصال، لخصها **(ليفي شتراوس)** في مقالته حول البنية الاجتماعية، إن الاتصال بين الأفراد أو الجماعات ليس بالفعل نتيجة للحياة في المجتمع، إنها الحياة بالذات، شريطة عدم حصرها في الاتصال الشفوي أو الخطي وحده. حيث يقول:" في كل مجتمع يمثل الاتصال دورا في ثلاثة مستويات مختلفة: صلة النساء، وصلة الأموال والخدمات، وصلة الرسائل. إذن تتناول دراسات القرابة والاقتصاد واللغة مواضيع من نوع واحد على الرغم من أنها تقع في مستويات...مختلفة"[XXVi]. فالزواج اتصال بطيء لحقائق من الطبيعة نفسها ومن مرتبة السمو نفسه للأشخاص الذين يقيمون الاتصال، استطاعت في كل الأحوال أن تكون في الأصل قيما مختلفة عن الأشخاص. مثلما يحدث مع النساء، يحدث التبادل الاتصالي أيضا مع الطعام والمنتجات.

معالم منهجه البنائي وأهم خصائصه:

والآن بعد أن استعرضنا بإيجاز بعض دراساته لعدد من الأبنية الإنسانية المختلفة قديما وحديثا، نريد أن نستخلص معالم المنهج البنائي وأهم خصائصه كما يبدو عنده وعند غيره من البنائيين. إ ن البنائية في جوهرها منهج قبل أن تكون مذهبا، إنها جهد مفتوح للكشف عن الحقيقة الإنسانية، وليست مذهبا جامدا مغلقا. منهج تحليلي وتركيبي للبناءات الإنسانية بشتى مكوناتها الجزئية، وهدف هذا المنهج كشف العلاقات الداخلية التي تربط بين مكونات كل بناء، تمهيدا للتحكم فيها وإعادة ترتيبها والارتقاء بمستواها الوظيفي.

إن الاتجاهات التجريبية المعاصرة سواء في العلوم الطبيعية أو الإنسانية، وكذلك غالبية المذاهب الفلسفية التجريبية، أوغلت كثيرا في دراسة الجزئيات المختلفة لأي ظاهرة في تفردها عن غيرها من الظواهر الأخرى، وأهملت الشكل الكلي والعلاقات العامة التي تربط بين شتى ظواهر الوجود؛ لهذا كانت قاصرة عن إدراك الحقيقة. وقد ظهرت اتجاهات أخرى في بعض العلوم الإنسانية بدأت تهتم بالشكل الكلي والعلاقات العامة أكثر من اهتمامها بالمكونات الجزئية، كما أن عددا من المذاهب المثالية المطلقة في الفلسفة المعاصرة قصر اهتمامه على هذا الكل وجعله في مركز الصدارة دون الجزئيات التي يتكون منها والتي توارت في الخلف؛ ولهذا أيضا كانت قاصرة عن إدراك الحقيقة. إذ إن الحقيقة في جوهرها عبارة عن التقاء المكونات الجزئية مع الشكل الكلي في وحدة مترابطة وبواسطة علاقات محددة لا توجد فيها أولوية لطرف على الآخر.

من وجهة النظر تلك بدأت البنائية تحدد لنفسها وظيفتها وهدفها، وحاولت أن تجمع بين الجزئيات والكل الذي يضمها في بناء واحد متكامل يقوم على علاقات موضوعية ثابتة، وكل بناء يتكامل بدوره مع غيره من الأبنية الأخرى في هذا الوجود، لقد أصبحت العناصر الجزئية لأي بناء ليست ذات معنى في حد ذاتها ومنفردة، وإنما تنبع حقيقتها ويظهر معناها عند ارتباطها

بغيرها من العناصر الجزئية الأخرى في علاقات تنظيمية محددة وثابتة [xxvii]. ومن هنا أصبحت الأولوية في البنائية للعلاقات دون الأشياء؛ لأن تلك العلاقات تحدد وظيفة الأشياء وتخلع عليها المعاني المختلفة، و تجعل لكل شيء بناء متكاملا، يرتبط بدوره مع غيره من الأبنية الأخرى في علاقات أكثر اتساعا. إن كل بناء في الوجود كاللغة والمجتمع والإنسان وغيرها عبارة عن علاقات تجمع بين جزئيات متعددة، تحدد لها طبيعتها ووظيفتها ودورها التاريخي أو الاجتماعي، وكشف هذه العلاقات يعني إمكان التحكم في البناء نفسه، وإعادة ترتيب العلاقات التي تربط بين جزئياته، والارتقاء بأدائه الوظيفي، فيتحقق بذلك التقدم المنشود بالنسبة للبناء الإنساني عامة. وهكذا تكون البنائية منهجا مفتوحا يدرس العلاقات القائمة بين أجزاء كل بناء إنساني، ويعتمد هذا المنهج على عدة قواعد أساسية يمكن أن نستخلصها من دراستنا الموجزة السابقة، هي:

أولا: تحليل كل بناء إلى جزئياته التي يتكون منها، وذلك للكشف عن العلاقات الموضوعية التي تربطها بعضها ببعض، ثم إعادة تركيبها في بناء كلي جديد يكون أرقى من البناء السابق وأكثر تقدما منه. ولعله في هذه الخاصية يرجع إلى الإرث الديكارتي.

ثانيا: تحديد اتجاه عملية تحليل وتركيب كل بناء، وهذه تتمثل في الصفة الإنسانية التي يجب أن تكون الأساس في دراسة أي بناء، مهما كان الاعتقاد في أنه بعيد عن الإنسان؛ وذلك لأن البنائية في جوهرها نزعة إنسانية تهدف إلى تطوير الأبنية الإنسانية المختلفة والارتقاء بالعلاقات الوظيفية التي تربط جزئياتها فيما بينها.

ثالثا: اكتشاف الماهيات الكامنة خلف كل بناء، هذه الماهيات التي تتمثل في العلاقات الموضوعية، ليست ماهيات عقلية مجردة، وإنما هي نفسها هذه العلاقات وليست شيئا آخر أعلى منها.

وقد قام البنائيون من خلال هذا المنهج بدراسة الكثير من الأبنية الإنسانية المختلفة كاللغة والعادات والأساطير وغيرها، ليستخرجوا منها حقيقة العلاقات التي تربطها فيما بينها، وليكتشفوا ماهية الإنسان ويرتقوا بأدائه الوظيفي في شتى مجالات الحياة. وقد امتد نطاق استخدام المنهج البنائي في الوقت الحاضر ليصل إلى مجالات إنسانية أخرى جديدة، في مقدمتها النقد الأدبي، حيث ظهرت مدارس نقدية في الأدب ترتكز على المنهج البنائي في تحليل الأعمال الأدبية وفقا لهذا التطور الفكري الجديد، الذي أصبح له مكان بارز في حياتنا المعاصرة.

الخاتمة:

1. يتضح مما سبق بأن البنيوية منهج في التفكير ومعيار للحق، أكثر من كونها نظرية فلسفية، إنها تهيئ الظروف الملائمة لكل مفكر للإنتاج الفكري، وتبادل ثمار تفكيره مع شركاء المنهج، في تنوع رائع في المنتجات، حتى وإن اختلف المذاق.
2. تدعي البنيوية أنها تحاول تفسير جميع الحقائق البشرية أو على الأصح أنها على وشك أن تفسر كل شيء، وكان هذا سر جاذبيتها. فالاهتمام الذي حظي به الترتيب له تاريخ يمكن قراءته من وجهين كما بين أستاذ الفلسفة **(رجب بودبوس):** أحدهما بفضل الموضوعات التي "على الموضة" في علاقتها مع المجتمع الذي تظهر فيه، ويتوقف أو يمتنع، على الأقل بسبب منهجي، عن كل تقييم لادعائها الحقيقة، أنها قراءة اختزالية، هذه القراءة ترى أن البنيوية تحل محل الوجودية. بينما القراءة الأخرى ترى أن التحليل البنيوي تحليل علمي، نتائجه قابلة للتدوين، وادعاؤه الحقيقة قابل للبرهان، ما يجب عندئذ فحص المحتوى العلمي لما توصلت إليه من مقترحات، هذا الفحص، كالعادة بالنسبة لكل فرضية علمية مهمة، يقوم على النظر أولا في خصوبتها في قراءة الأولى، ينظر إلى البنيوية على أنها مذهب تعبير عن ثقافة مجتمع، انعكاس لحالته، ومرآة يعكس بواسطتها لنفسه.
3. كما أ ننا ندرك من خلال هذه النظرية أنه من الضروري أن يتعمق أستاذ الفلسفة في فقه اللغات والألسن، وضرورة أن يتعمق أستاذ اللغة في الفلسفة؛ لأن الأول يناقش الأداة المعبرة عن رؤيته الفلسفية، والثاني يريد أن يجعل للسانه معنى ومفهوما.
4. أهمية التمسك بفكرة غاية في البساطة وهي إعادة الأمور إلى أصولها الأولية وقواعدها الفطرية، ثم الانطلاق منها. من أجل تصحيح الأخطاء "معيار الحقيقة" والبناء على قواعد العدل، إنها النظام البنيوي الذي يجمع جميع الذوات في نسق رائع يحافظ فيه الكل على وجوده ولا يذوب في الآخر بل يكون معه ذاتا مشتركة.

المراجع

[1]- جورج واطسون: الفكر الأدبي المعاصر، ترجمة مصطفى بدوي،ط(.)،(الهيئة المصرية العامة للكتاب،1980م).ص47.

[2]-جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، (بيروت، الشركة العالمية لكتاب غزة،1994م)، ص218.

[3]- المصدر نفسه، ص48.

[4]- داريان ليدر وجودي جروفز: لكآن، ترجمة إمام عبد الفتاح أمام، (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، سلسلة أقدم لك، العدد461 ،2003م)،ص84.

[5]- زكريا إبراهيم: مشكلة البنية، ط (.)، (مكتبة، مصر،1976م).
[6]- أندرية لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب، خليل أحمد خليل، المجلد الثالث، ط2، (منشورات عويدات، باريس،2001). ص1539.
[7]- ستيفان هابر:هابرماس والسوسيولوجيا، ترجمة محمد جديدي، ط(.)، (منشورات ضفاف، بيروت ،2012م).
[8]- صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، ط2، (مكتبة الأنجلو المصرية، 1980)، ص20.
[9]- عبد الوهاب جعفر: البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكوه، ط(.)، (دار المعارف، الإسكندرية،1980م)، ص: 123. 130.
[10]- موريس ميرلوبونتي: تقريظ الفلسفة، ترجمة: قزحيا خوري، ط 1، (منشورات عويدات، بيروت،1983م)، ص112.
[11]- جورج واطسون، الفكر الأدبي المعاصر، ص87.
[12]- محمود فهمي حجازي: أصول البنيوية في علم اللغة والدراسات الأثنولوجية، (عالم الفكر، الكويت، عدد يونيو،1972م)، ص156.
[13]- كلود ليفي شتراوس: العرق والتاريخ، ترجمة سليم حداد، ط(.)، (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1982م)، ص101.
[14]- صلاح فضل: منهج الواقعية في الإبداع الأدبي، ط2، (دار المعارف، 1980)،ص292.
[15]- كلودليفي شتراوس: في البناء الاجتماعي، ترجمة سامي عبد المحسن، (مجلة مطالعات في العلوم الاجتماعية، صيف/ خريف 1960م)، ص127.
[16]- علياء شكري: علم الاجتماع الفرنسي المعاصر، ط(.)، (دار الكتب الجامعية، الإسكندرية، 1972م)، ص282. 267.
[17]- ستيفان هابر:هابرماس والسوسيولوجيا، ترجمة محمد جديدي، ص91.

* علم الانثروبولوجيا هو العلم الذي يتخذ مادة البحث قسما معينا من الكائنات، ونعني به الإنسان، فهو يشرح مظاهر السلوك وخصائص المجتمعات الإنسانية، ويحاول أن يبحث الانفعالات ودوافع السلوك والمعتقدات التي يدينون بها. وهو في دراسته يبين لنا كيف نشأت التجمعات الأولى وتطورت إلى مجتمعات أكثر دقة وتنظيما.

[18]- زكريا إبراهيم: مشكلة البنية، ص36.
[19]- جورج لايكوف ومارك جونسن: الاستعارات التي نحيا بها: ترجمة: عبد المجيد جحفة، ط1، (دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 1996م)،ص112.
[20]- محمود فهمي حجازي: أصول البنيوية في علم اللغة والدراسات الأثنولوجية ، ص157.
[21]- عبد الوهاب جعفر:الفلسفة واللغة ودور اللغة في تكوين تصور العالم، ط3، (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،2008م)،ص62.
[22]- ريتشرد هارلند: ما فوق البنيوية، ترجمة لحسن أحمامة، ط2، (دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، 2009م)،ص41.
[23]- كلود ليفي شتراوس: العرق والتاريخ، ص80.
[24]- برومليه، بودلني، الاثنوس والتاريخ، ترجمة طارق معصرانى، ط(.)،(دار التقدم، موسكو،1988) ، ص21.
[25]- زكريا إبراهيم: مشكلة البنية، ص191.
[26]- ريتشرد هارلند: ما فوق البنيوية، ترجمة لحسن أحمامة،ص54.
[27]- موريس ميرلوبونتي: تقريظ الفلسفة، ترجمة: قزحيا خوري، ص127.